فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٣ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوى

نقد الحكم La critique du jugement

ترى كانت — فى فصله هذا — يعزو كل تأثير الى أحاسيس باطنية ، فهو لا يتحرى اذ يتحرى عن أسباب الجمال الخارجية ، لأن الحس لا يكمن فى الأشياء ولكنه يكمن فى الانسان

وقد شطر نقد الحكم شطرين : الأول ويحتوى على الألفة بين الجميل والسامى لما بين الجمال والسمو من تقارب ، والآخر وهو يعنى بمظاهر الأشياء المؤتلفة المتطابقة فى الوجود

إن (كانت) بحث فى موضوع الجميل beau واللذيذ agréable كما بحث فيه الأولون ، ولكنه وسع دائرة البحث وتعمق فى تحليله ؛ فاعتبر اللذيذ كل ما فيه لذة للحواس مصحوباً بالرغبة ، واعتبر اللذة التى يولدها مشهد الحسن والجمال لذة خالية من الأهواء والأغراض ، وإن حكما ما يمازجه قليل من الهوى لهو حكم فاسد غير مبنى على الذوق ، ولكن لما كان حكم الذوق مبنياً على العاطفة فهو بحكم الضرورة قابل للتغير ، وفى الامكان أن نرى فى كل بيوت الفن — وفى الطبيعة تماثيل ودمى تحظى برضا الناس ؛ ولكننا لن نرى مقياساً واحداً صحيحاً للجمال ، لأن الذوق نفسه هو كالبراعة شىء مبتكر

فاذا كان الجمال يؤثر فى شعورنا تأثيراً خفياً ويرسل فينا الراحة واللذة من حيث لا نشعر ، فان السمو ليبلونا باهتزاز عنيف قد يكون مضنياً ومرهقاً للنفس ولأن يكون مايبعثه السمو فى أنفسنا أدنى الى عاطفة الأعجاب والاجلال منه الى الراحة واللذة أحرى وأجدر ، واسمه الحقيق هو « اللذة السلبية »

ويفرق كانت بين السمو الرياضى mathématique والسمو الآلى « أو ذو الحركة » dynamique هذا مؤسس على فكرة القوة وذلك على فكرة العظمة والروعة ، فالطبيعة هى سامية عالية — رياضياً — فى حوادثها التى يصعب على مخيلاتنا إدراكها ، وهى سامية أيضاً بحركات أجرامها الهائمة فى الفضاء ، حتى كأنها تريد أن تسحق وجوداتنا المادى . وفى كلا الحالين تهيب مخيلتنا بعقلنا ، فيتركنا العقل ذاهلين أمام السماء ذات الكواكب واللانهاية التى لا تحد ولا تبلغ الى عظمتها المخيلة مهما سمت ، وهو العقل الذى يثير فينا عاطفة السمو ، ويجعلنا نردد معه « ما أنا إلا قصبة ، لكنها قصبة مفكرة »

فالسمو إذاً لا يكمن فى الأشياء ، ولكن فى أنفسنا ، فلا يجب علينا أن نقول « إن هذا الشىء هو سام » ولكنه شىء يبعث فينا فكرة السمو ، فلا شىء فى الطبيعة مهما جل — إذا نظرنا اليه نظرة قياسية — إلا وهو يهوى الى أحقر الأشياء ، ولا شىء حقير — إذا قسناه بمقياس آخر — إلا وهو يرقى الى أعلى الأشياء ، وهناك المراصد والمجاهر تثبت صحة دعاوانا

يعرض أمامنا شىء رائع ، يعجزنا التعبير عنه فنقول : إنه لسام رائع : ويخلق معركة حامية بين العقل والمخيلة ، فلا تستطيع المخيلة إدراك كنهه ، والعقل لا يفتأ يتحرى عن وسيلة يفهمه بها ، فينشأ من ذلك تلك الروعة التى نحسها أمام الأشياء العظيمة السامية ، ولكنها روعة ترفع أنفسنا الى المثل العليا ، لأنها تنبه

يريد له ألاّ يصاحب دونه ... وألاّ يُنيل الغير ما هو نائله
يريد له ألاّ يخفّ لغيره ... ولو كان ممن تستبيه شمائله
أمانٍ كحال البدر يدنو ضياؤه ... وتُمعِنُ فى بُعد المزار منازله
وعبء تنوء الشامخات بثقله ... ويفقد رَضْوَى عزمه وهو حامله
فكيف بمحبوب أرقّ من الصّبا ... وأحنى من الغصن النضير كواهله
فيا غيرة الصب التى طوّحته فى ... خِفَ من البلوى تنامت سواحله
ويا ويحه يخشى لقاء حبيبه ... مع الغير حتى لا تهيج بلابله
فيهجره رغم الجوار وإنه ... لأحوج أن ترْوِى صداه مناهله
ويحمل فى النأى العذاب وكلما ... تراءى له المحبوب ضجّت مراجله
وأغرق فى بحر الأسى وحبيبه ... تفيض بآيات الحبور محافله
ويا حيرة المحبوب فيما يشاؤه ... مُحبٌّ بعيدُ الغَوْر ما هو آمله
عزيز عليه أن يرى بشره انحى ... ونضرته كالروض جفّت خمائله
ولكنه لا يستريح لناصح ... له فى الهوى أو يرتضى من يجادِلُهْ

قرنبعى شوكر

فينا ناحيـة العظمة الصادقة التى تتجلى بها طبيعتنا الأنسانية وحريتنا الأخلاقية

أسلوب كانت

بعد كانت أصدق الفلاسفة اعتقاداً وأصفاهم أسلوباً ، يقول ما يعتقد به حقاً ويكتب لقرائه كما يكتب لنفسه ، تكاد تنطق جملته بفكرته ، ويعتقد أن الحقيقة غنية بنفسها ، وأن الزخرفة فى التعبير عنها مما يرخص من قيمتها ، ورغم هذا الأسلوب الواضح رماه بعضهم بظلمة التعبير ، وقد أراد هؤلاء أن يظهروا أن كانت ليس ممن تنبسط أفكارهم للقارئ بسهولة . على أن أفكار كانت لا تمشى إلى قارئها ، وإنما على القارئ أن يسعى اليها ليدركها ، ولكنه لا بد مدركها كلها ، ولكن إدراكها لا يخلو من الجهود التى لا يستغنى عنها رجل يسعى

إن أسلوب كانت واضح جد الوضوح ، ولكن عيبه الواحد الذى أخذه عليه النقاد أنه يخلق فى الموضوع شعباً كثيرة لا يترك منها مسرباً الا نفذ فيه ، وهذا قد يدل على سعة اطلاع ونظر بعيد وإن كان لا يخلو من السأم ، ولكن كانت لم يكتب إلا لذوى الألمام بهذا الموضوع فقد يأخذ الموضوع الحقير الذى لا يكاد يخوض فيه عقل فيخلق منه موضوعاً كبيراً ، وقد ذكر أحدهم نكتة ضحك على لسان صديقه (فيار) أن هذا أعلن للفيلسوف أنه لا يستطيع أن يقرأ تصانيفه ، لأن الله لم يخلق له أكثر من هذه الأنامل ، يريد أن يضع أنملة على هذه الكلمة وأخرى على الثانية وهكذا حتى تنتهى أنامله ولما يكمل العبارة ويقف على دقائقها ، لأن كانت يستعمل كثيراً الاقواس والأهلة فى عباراته المتصل بعضها ببعض . وقد كان لكانت فضل كبير فى خلق كلمات وتعابير جديدة فلسفية خلقها بنفسه ، وفرضها على اللغة الفلسفية بنفسه

وأخيراً نستطيع أن نقول إن كانت كان مطلع الثورة الفلسفية فى المانيا التى خلقت « فيخت وشيلنغ وهيجل[1] » وقد تناول تأثيره جميع المدارس العلمية والأدبية ، وما نبغ فيلسوف ولا أديب ولا شاعر نشأ بعد كانت الا وكان مديناً له ولمذهبه بكثير من آرائه ، وشيلر نفسه قد استمد من كانت آراءه فى الجمال والسمو ، وما أصدق كلمة (غليوم همبولد) حين قال « إن قسماً من الذى هدمه كانت لن يقوم أبداً ، وإن قسماً من الذى شاده لن يخسف أبداً »

(١) سنبدى فى مقالاتنا الآتية تأثر هؤلاء الفلاسفة بعلمهم الكبير كانت

فيخت

FICHTE

١٧٦٢ — ١٨١٤

ولد « فيخت » سنة « ١٧٦٢ » فى قرية « رامينو » ولم يكن أبوه ليقدر على القيام بأعباء تعليمه ، فكفله أحد سادة القرية وأنفق فى سبيل تعليمه ما أنفق ؛ وبعد جهاد عنيف ودرس طويل دخل فى العالم الفلسفى ، فكان أول كتاب له « تجربة نقدية لكل وحى » وكتابه الثانى « تقويم أحكام الشعب على الثورة الفرنسية » وكتابه الثالث « نداء عام لأمراء أوروبا لكى يفكوا العقل من عقاله » وهذه الكتب الثلاثة وضعت « فيخت » فى مصاف أرباب فلسفة النقد والثورة ، وبعد هذا الانتاج الطيب أعلن فى محاضرة له قيمة مذهبه الذى وسمه بالمذهب العلمى ، وهو الذى يرد به كل العلوم الى مصدر واحد . وهذا المذهب أو هذه الثورة الفلسفية أطارت اسمه فى الآفاق ، حتى غدا حديث المجامع والنوادى . وقد أسند اليه منبر فى « لينا » ليحاضر فى الفلسفة ، فسهل له هذا المقام أن يعاود شرح مذهبه وتفصيله من جميع نواحيه فى كتبه العلمية ، وكان خلال ذلك يواصل نشر مقالاته فى « واجب العلماء » فهو يريد من العالم أن يسيطر على شؤون بلده ، لأن العالم عنده ليس بالرجل الذى يملأ رأسه علماً وعرفاناً ، ولا من يتخصص فى مادة واحدة يذهب بها كل مذهب ، ولكنما العالم هو الرجل الحر الذى اجتمعت له ثقافة عصره ، وسما فوق مشاغل حياته اليومية ، هو يريد أن ينقاد المجتمع للرجال الألمع ذكاء والأروع عقلاً

وربما دفعه هذا المذهب — أضف إليه بعض مشاغل خاصة — إلى أن يقطع الكثير من دراساته المتواصلة ، كان يحاول من ورائها أن يطبق مذهبه النظرى على الأخلاق والحقوق والسياسة والدين ، يقطع هذه الدراسات ملتفتاً إلى شؤون أمته المجروبة ، وقد خطب الشعب كثيراً فى « برلين » بأسلوب تبدو فيها حماسة الفيلسوف وشدة تعلقه بوطنه ، ومن خطبه خطبة ذكر فيها أسباب انحطاط أمته ووصف العلاج الشافى لهذا الانحطاط

قال : (إن أسباب الانحطاط داخلية ؛ لا يمكن أن تعزى إلى بأس الخصم وسيطرته ، إنها تتجلى فى خنوعنا ولين أخلاقنا ، وفى أنانية مرشدينا وقوادنا ، وفى إعجابنا وتقليدنا الأعمى للأجنبى

[البقية على صفحة ٢١٥٨]